الحلقة (٣)

(إشكال أن الدين والعلم متعارضان)

وهذه أطروحة! وهناك أطروحة تقول أنهما غير متعارضين ولكن لكل مجاله، ولكن لا دخل للدين في مجال العلم، ولا دخل للعلم في مجال الدين، فذاك مجال له مختصون فيه، والدين خارج إطار العلم، ويأتي في مقابل ذلك من يقول لا يمكن حسم القضية بهذا الشكل، فهناك نقاط التقاء وافتراق في مجال العلم وفي مجال الدين، نحاول نحن تصوير هذه الإشكالية وعلتها أو مصدرها التاريخي، ثم نحاول معالجتها.

• الإشكالية الأساسية التي تقول أن الدين والعلم متعارضان لا التقاء بينهم، وأن أحدهم نقيض الآخر، **أين نشأت؟ وفي أي محيط ظهرت؟ هل ظهرت في محيط الثقافة الإسلامية أم في محيط آخر؟**

إذا نظرنا في الواقع نرى أنها ظهرت في محيط الثقافة الغربية حينما بدأت أوروبا في نهضتها الحديثة، فقد كان الوضع السائد في أوروبا في المجال العلمي هو التراث الكنسي أو العلم الديني النصراني، الموجود بأيدي العلماء في الدين لديهم، ومن المعلوم السائد آنذاك هو الكاثوليك، حينما بدأ بالاتصال بالحضارة الإسلامية الناهضة آنذاك، واكتشف الأوربيون؛ العلوم والفلسفات والعلوم المختلفة لدى المسلمين، ولا سيما مناهج العلوم والمنهج التجريبي على وجه الخصوص، وخاصة أن المسلمين قد برزوا في هذه المناهج سواء الرياضية أو التجريبية، أو المناهج العقلية كالشك المنهجي الذي طرحه ديكارتيو ونظّر له في أوروبا.

هؤلاء لما اكتشفوا هذه العلوم وبدؤوا في تطبيقها وفي تدارس الواقع الطبيعي والكوني والإنساني في ضوء هذه المنهجيات؛ اكتشفوا أشياء جديدة تخالف ما عليه الكنيسة، ومن ذلك مثلاً: ما يتعلق بكروية الأرض وبدورانها وباختلاف فصولها وأيامها ولياليها بحسب هذا الدوران، ونحو ذلك من العلوم التي اكتشفها أولئك الغربيون، ولما قالوا بهذه النتائج كانت تعارض اجتهادات رجال الدين النصراني، فهذا التعارض أوجد تناقضاً، وأوجد تحدياً من الطرفين، فقامت المعركة بين المختصين بالدين الكَنَسي وبين المختصين بالعلوم الطبيعية والإنسانية الذين كانوا هم الفلاسفة، فظهر الصراع قوياً ووصل إلى حد تحريق بعض هؤلاء العلماء الذين قالوا بدوران الأرض ونحوها من النتائج الفلكية التي تعارض ما لدى الكنيسة، فاستعملت معهم التعذيب والتحريق والقتل والتشريد ونحو ذلك، واشتد الصراع بين الطرفين، وكانت النتيجة في النهاية والحسم هو لأصحاب العلم الحديث، الذين طبقوا هذه المنهجيات التي أخذوا أصلها من الحضارة الإسلامية، فهذا الصراع أوجد نفوراً من الدين وأفرز هذه المقولة (إن العلم والدين متعارضان).

ولكن بجانبها من قال أنهما ليسا متعارضين ولكن لكلٍ مجاله، فلا دخل للدين في العلم ولا دخل

للعلم في الدين، ولما انفتح العالم الإسلامي على العالم الغربي وذهبت ثلة من أبنائه للدراسة هناك، درسوا وفق مناهج التفكير الغربي، وهي مناهج تستبعد الدين إما استبعاداً كلياً على أساس أنه نوع من الخرافة، ونوع من العوائد والأشياء اللاعلمية، أو على أنه له مجاله الخاص ولا دخل لنا فيه وبالتالي لا دخل له في دنياه.

هذه الطلائع التي ذهبت إلى الغرب واستفادت هذه المنهجية العلمية نقلتها كما هي في مجال الثقافة الإسلامية، وساعد على ذلك ما كانت تعيشه العلوم الإسلامية من شبه توقف ومن جمود في الغالب، بحيث وجد بعض أولئك نفوراً من علماء المسلمين ورفضاً لما يقولونه، دون أن يكون هنالك مجال للمناقشة والنظر واستقصاء مصدر الإشكال ومحاولة الخروج بطريقة علمية عقلية تراعي المجال الديني والمجال العلمي وما بينهما من تلاق وما لكل منهما من مجال.

• **الخلاصة**: يجب أن لا نكون أصحاب مطلقات، وهذه الأفكار المطلقة هي طبيعة الإيدولوجيات والمذهبيات التي تريد أن تسقط الآخر دون أن تصل إلى الحقيقة، والله عز وجل قد أمرنا في محكم كتابه أن نسير بطريقة علمية عقلية توصلنا إلى الحقيقة، فمثلاً: في القرآن الكريم: {وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ} {وجَادِلْهُمْ بِالّتِي هِيَ أَحْسَنُ} {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ}لابد أن يكون الجدل والنقاش مبنيا على أصل علمي، فهذه الأصول العلمية المشتركة توصل إلى الاتفاق وليس إلى التضاد، ولكن عدم الانطلاق من الأصول المشتركة والابتداء أساسا بالرفض المطلق أو القبول المطلق لا يتفق مع منهج الإسلام.

فالله عز و جل لم يطلب من الآخرين أن يؤمنوا دون أن يمروا بتفكير ونظر وتدبر {قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ}، {إِنَّ فِي ذَالِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ}، {الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، فالتفكر والنظر والاستدلال أمر أساسي، والله عز وجل علمنا ذلك في القرآن الكريم { أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لا يُوقِنُونَ}، {لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ}، {أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ} {وَضَرَبَ لَنَا مثلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ،قلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ} وهكذا يوجهنا إلى الاستدلال والنظر باستعمال الأدلة الفطرية، والأدلة العقلية، التي هي مشتركة بين البشر.

هنا يجب أن ننتبه حتى لا يكون حكمنا جائراً على الآخرين، ولا حكمنا متحيزاً دون دليل، أننا نرد القضية إلى واقعها.

أولا: القضية نتيجة مشكلة اجتماعية تاريخية معينة في مجتمع معين **لماذا؟**

لأن الدين أشمل من الفكر وأوسع من الفكر، فالدين الحق محيط وشامل، ولذلك قال تعالى: {ما فَرَّطْنَا في الكِتَابِ مِنْ شَيء} وقال أيضا:{ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ} لكن العجز يتطرق إلى الإنسان، فالعجز هو في النسبي وليس في الدين، فالدين حق وشامل ومحيط، والإنسان ناقص ومن طبيعته النقص في نظره وفي النتائج، فلذلك يحتاج إلى تصحيح وتصويب نظره، ويتسع أفقه بقدر اتساع علمه، ولابد أن يكون في علمه متكاملاً بين جانب الخلق وجانب الشرع، وحينما تختل قاعدة من هذه القواعد أو مجال من هذه المجالات ينعكس على النتيجة، وبالتالي يظهر هذا التضاد أو التعارض الموهوم، فالتعارض والتضاد ليس بين الدين في أصله أو مصادره الحق وبين العلم، وإنما هو تعارض بين الفهم الإنساني للدين وبين مستوى الفهم أو العلم الذي وصل إليه أولئك.

ونبين هذا من خلال الواقع نجد أن العالم الغربي في وقت من الأوقات تخلوا عن تراثهم الديني جملة وتفصيلا ورفضوه، ونظروا إلى أن هذه من نتائج الاجتماع، ثم زاد الأمر حتى وصلوا إلى الإلحاد، فكانوا قد أبقوا على مسألة وجود الله عز وجل وردّ الكون إليه، وقيود النفس الإنسانية وبعض القضايا العصرية التي لم يجدوا منها مهرباً، لما تطورت العلوم لديهم واتسعت مساحة الرؤيا إلى حد ما، ظنوا أنهم أحاطوا بكل شيء.

ولذلك لما طرح نيوتن نظريته قالوا: انتهينا من فكرة الإله، واكتشفنا أن الكون عبارة عن مكينة تدير نفسها بنفسها فلا حاجة للإله، ثم لما جاءهم داروين بنظرية التطور، قالوا انتهينا من مسألة الخلق، فلا خلق ولا إله، وإنما هي في إطار هذه المادة، ثم لما جاء فرويد بالشعور واللاشعور قالوا: تخلصنا من الوحي ومن الأنبياء، فهو من الشعور إلى اللاشعور فوظفوا نتائج علم معين مع عدم الجزم.

هل كان العلم سيتوقف عند نيوتن أو عند داروين أو فرويد أم أن العلم سيتطور، العلم يتطور ومساحته تزداد اتساعاً، وكلما زادت مساحة العلم كلما عاد الإنسان على أصوله الفلسفية للعلم بالتنقيح والنظر، فإذاً لما كان القرن الثامن عشر والتاسع عشر كان عصر الإلحاد، فالإيمان نفي فيه جملة وتفصيلا واعتبر من مخلفات القرون، لكن العلم ما زال يتسع شيئاً فشيئاً، فجاءت النظرية النسبية لتنتقد نظرية المطلقات عند نيوتن، ثم جاءت نظرية الكوانتوم الفيزيائية لتكشف عن أن المادة تتموج لتصبح طاقة والطاقة تتجسد وتصبح مادة، ولم يعد الوجود محصوراً في الذرات اللامتناهية كما يذهب الماديون، وتقدمت جراحة الأعصاب حتى اكتشف الناس أن الروح ليست مصدرها الجسد، وأن هناك مصدر آخر للروح خارج النطاق المادي، وكذلك التطورات في مجال علم بالإنسان والعلم بالأحياء، فتكتشف شيئاً ليس ما يجزم به ويقول به دارو، وإنما هناك أطوار وليس تطور، وفرق بين الأطوار والتطور، معنى الطور الأول للخلق كان مادياً طبيعياً جماداً بلغتنا الإنسانية وإن كان كل شيء حي ثم حياة تليق به، ثم جاء طور الحياة والأحياء، وهكذا ينتقل الكون من طور إلى طور حتى يأتي طور الإنسان الذي يقول الدين هو أعلى أو آخر المخلوقات: الإنسان.

تبقى القضية قضية الخلق وقضية التطور، الله عز وجل لم ينفِ أن كل خلق تم عبر أطوار، ولكن ننفي من الدين أن يكون صدفة وأن كل شيء انبثق من الآخر انبثاقاً تلقائياً، وإنما كل خلق هو بحكمةٍ وإرادةٍ إلهية في وقته الذي يريده الله عز وجل، وينتقل ويظهر شيئاً فشيئاً بأطوار يعلمها الله سبحانه وتعالى أشار إلى بعضها كما في أطوار خلق الإنسان، وكما في أطوار خلق السموات والأرض وغير ذلك، فإذاً هناك نقاط التقاء وافتراق.

إذاً الغربيون بعد هذه التطورات العلمية بدأت تظهر نظرية إيمانية جديدة، العلماء يرون أن الكون له خالق، وأنه موجود من خارجه، وبدؤوا يتحدثون عن لحظة الانفجار الأعظم وعن بداية الخلق وعن نهايته، ولا سيما لما اكتشفوا ما يسمى بالقانون الثاني للديناميكة الحرارية الذي يقضي بأنّ الكون يفقد حرارته شيئاً فشيئاً وما فقد لا يعوض، وقد أعطى هذا دليلاً حاسماً على أن الكون له بداية ونهاية، وأنه موجود بعد أن لم يكن، إلى غير ذلك من الكشوفات العلمية الباهرة التي جعلت الإنسان يتراجع عن الإلحاد، ويعود إلى أن هناك خالق للخلق ويعود بنظرية الخلق ونحوها، لا يعني هذا أن النظرية الأولى اندثرت تماما، لكن لها قيمتها ولها المنتفعون منها إلى آخره، لكن تبقى هذه نظرية قائمة وبقوة تتنامى بقدر تنامي العلم الحديث وتطوره، والعلم كلما تطور أفضى إلى تطوير لفلسفة العلم، قد كتب علماء الغرب في هذا الشيء كتابات يبينون فيه تطور فلسفة العلوم بتطور العلم، وكلما اتسعت مساحة الاكتشاف والنظر كلما أعيد النظر في فلسفة العلم وأقيم على فلسفة جديدة.

<u>فإذن مصدر الإشكال مصدر تاريخي في مرحلة معينة تصادم قوى معينة في مجتمع معين</u>.

- **<u>المصدر الآخر للإشكال هو</u>**: قصور المعرفة أو نقص المعرفة، فكلما اتسعت المعرفة كلما انحل الإشكال.
- **<u>المصدر الثالث هو</u>**: الخلط بين العلم من الناحية الفنية والعلم من الناحية الشرعية.

فالعلم من الناحية الفنية أو السننية التي تكشف قوانين الأشياء وكيف تشتغل، وينبني عليها بناء العلوم على الجانب السنني، لا يمكن أن يتعارض مع بناء العلوم على الناحية الشرعية، ولذلك النبي صلى الله عليه وسلم حتى لا يختلط المجال التجريبي المعاشي بالجانب الديني؛ نهي المسلمين عن أن يأخذوا بالجانب الديني في الجانب الفني، لأنه سيؤدي إلى تخريب الحياة وإلى ما أدى إليه في الغرب من وجود هذا التناقض، النبي صلى الله عليه وسلم كان ذات يوم بالمدينة ورأى رجل يلقح النخل فقال: (لو لم يفعل هذا لصلح)، النبي يريد أن يشد القلوب من التوقف مع الأسباب إلى خالق الأسباب ومسببها سبحانه وتعالى، حتى لا يلتفت الناس إلى العادة وينسوا ما وراء العادة، فالعادة أن الإنسان إذا لقح النخل خرج الثمر طيباً وهذه حكمة الله، فإذا لم تسقِ الزرع يموت، وإذا لم تصلحه تلف ولم يؤت بالثمر الجيدة، وهكذا سنة الله في كل شيء، فالتعرف على هذا الأمر مبناه على التجربة، لأن الله أراد أن يكون الكون منتظما حتى يستطيع الإنسان عبر هذا الانتظام أن يقيم حياته المعاشية وأن

يتدبر أمره في هذا الكون، ولو شاء سبحانه وتعالى لجعله بطريقة مفاجئة وإعجازية ولكن من حكمة الله أن جعله منتظما حتى يستفيد منه الكل، لأن الناس كلهم لا يطيقون الغيب، والله عز وجل يصطفي من رسله من يشاء، فالنبي حتى يشد القلوب إلى الله عز وجل ويخرجها من رابطة العادة والركون إليها؛ قال: (لو لم يفعل هذا لصلح)، وهذا ليس نهياً من النبي من تأبير النخل، بل هو لفت الانتباه والقلوب إلى الله عز وجل وتحذيرها من الوقوف مع الأسباب.

هذه الكلمة من النبي فُهِمَت فهماً خاطئاً فتركوا تأبير النخل فجاء التمر شيصاً _غير صالح للأكل_ فلما سألهم النبي عن السبب، قالوا: أنت قلت: (لو لم يفعل هذا لصلح)، فالنبي حتى يقطع الطريق على الأفهام الخاطئة التي تخلط بين الجانب السنني التجريبي وبين الجانب الديني الاعتقادي قال: (أنتم أعلم بشؤون دنياكم) أو كما قال الرسول: (ما حدثتكم عن الله فخذوه وأنتم أعلم بشؤون دنياكم) فهنا ابتدأ الخلط في وقت مبكر في وقت النبوة بين الجانب الاعتقادي والجانب العملي التجريبي، الجانب الفني والجانب الشرعي، فهذا مصدر ثالث من مصادر الخلق، وبالتالي لا بد أن يعطى كلٌّ حظه وحقه، فالعالم بالدين لا يتكلم بشيء من الأمور الفنية إلا بعد أن يتبصر به من أصحابه، والعالم بالناحية الفنية لا يخوض في الشرع إلا بعلم، فإن لم يكن عنده علم أمسك ورجع إلى المختصين فيه.

تنبيه على كلمة هنا تقال وتطلق وهي كلمة حق قد يتطرق من خلالها الباطل، فلما يقول بعض الناس (لا كهنوت في الإسلام) نعم لا أحد يتوسط بين العبد وبين ربه، فلا تحتاج كما تحتاج النصارى في الصلاة إلى كاهن ليتوسط لك حتى تتوب، فهنا في المجال السلوكي العبادي يجب أن لا تُجرّ على الجانب العلمي بالنص، فالعلم بالنص شيء، والتوسط بين النص وبين الله عز وجل شيء آخر، العلماء لا يزعمون أنهم يتوسطون في فهم النص بين الله وبين عباده فيقولون: (لا ترجعون إلا إلينا)، يقولون: إن الشرع علم كسائر العلوم، هناك أدوات ومناهج تجعل الإنسان مختصاً في هذا العلم كما يكون مختصاً في الفقه أو في الاعتقاد ونحوه كما يكون مختصاً في الفيزياء والطب والكيمياء والهندسة ونحوها، فلذلك كما أن العالم في الفقه لا يخوض في الفيزياء ولا في الكيمياء ولا في الطب وغير ذلك، لا يجوز لعالم الطب أن يخوض في الفقه بغير علم، إما أن يجلس إلى أهله ويتعلم العلم الشرعي ثم يخوض فيه بعلم وعدل، فهنا لا إشكال فيه حينها، فلا أحد يقول له لا تخض ما دام تعلم، لكن المنهي عنه أن يتكلم الإنسان في الشرع وأن يكون الشرع مباحاً لكل أحد، بحيث نرى أن المتخصص في الطب أو الكيمياء أو غيره يخوض في الدين وفي الشرع وهو لم يتعلمه على أصوله، فهذا مذموم منهي عنه، وهذا من مصادر الأخطاء حينما يتكلم في الشرع من لا يحسنه، أو من يتكلم في العلوم المعاشية من لم يحسنها، والأصل أن كل علم قائم بذاته ولا بد أن يتعلمه ويدخل إليه من بابه، ولا مجال هنا

للاحتجاج لا كهنوت في الإسلام لمنع غير المتخصص في الشرع من الحديث فيه.